الإسلام في البنغال عبر العصور من خلال نقوشها العربية *

أ. د. محمد يوسف صديق**

المقـــدمة التاريخية للإسلام في البنغال:

تستهدف هذه الدراسة تحليل تاريخ انتشار الإسلام في إقليم البنغال (ويشمل حالياً بنغلاديش ودولة غرب البنغال الهندية) وذلك خلال الفترة من 1205 إلى 1707 ميلادي من واقع النقوش الكتابية الإسلامية في المنطقة حيث يعتمد البحث على النقوش الكتابية في عمائر البنغال الآثارية بوصفها مصدراً رئيسا له. وإن أهمية هذا المقال تبرز من كونه يعالج وجهة نظر جديدة تستفيد من متابعة التفاعلات الدينية والثقافية خلال فترة مهمة جداً من تاريخ إقليم البنغال. كما أن هذا المقال يمثل خطوة متقدمة في كيفية فهم وتحليل التحولات الاجتماعية والثقافية والدينية في إقليم جنوب شرق آسيا من واقع النقوش الكتابية في الإقليم وذلك وعلى نحو غير مسبوق. ولا شك في أن هذا المقال سيساعد على فهم التاريخ المعقد والمتداخل لدخول الإسلام في تلك المنطقة التي لا تزال محافظة على هويتها الإسلامية ودورها الريادي البارز إضافة إلي استمرار اتصالها المباشر ببقية أنحاء العالم الإسلامي.

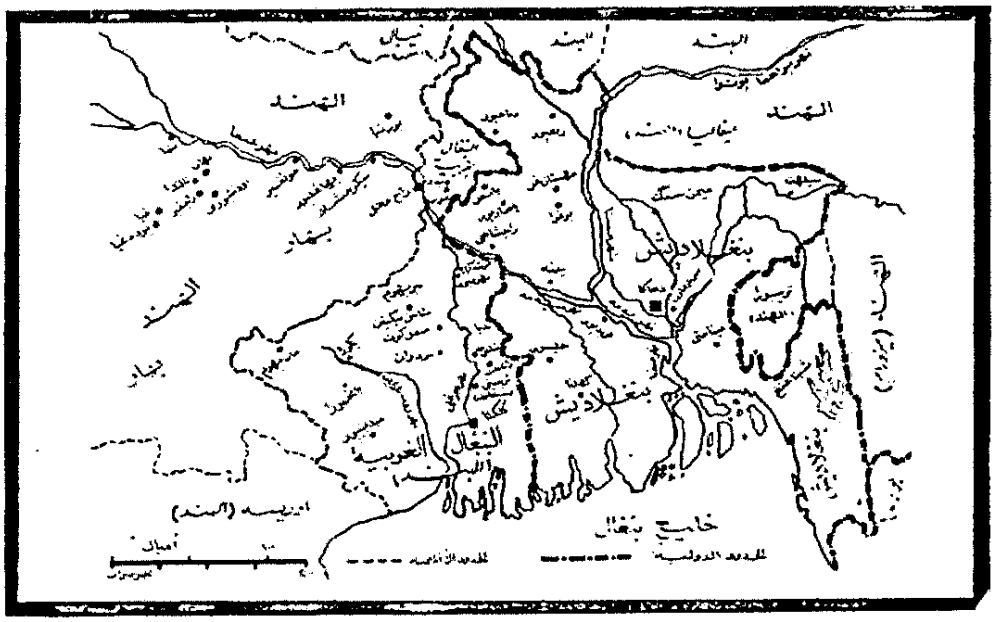

---

*يقدم الباحث خالص الشكر والامتنان يقدم الباحث خالص الشكر والامتنان لمؤسسة التراث الإيراني بلندن (Iran Heritage Foundation, London)، ولمؤسسة ماكس فان بارشم (Fondation Max Van Berchem) في جنيف بسويسرا، و لوزارة التعليم العالي (Higher Education Commission)باكستان لكل ما قدمتا من الدعم المالي والمعنوي والتشجيع لهذا المشروع العلمي ، ولولا دعمهما المالي المستمر لي لما قدّر لهذا الكتاب أن يخرج إلى حيز الوجود.

** أستاذ التاريخ الإسلامي و الدراسات الإسلامية، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان

بالرغم من بعد إقليم البنغال عن مهبط الوحي وشبه الجزيرة العربية عامة، فقد لعب دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي منذ أن دخل الإقليم تحت الحكم الإسلامي في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي. وبالرغم من أن حكام هذا الإقليم القصي كانوا يعينون من قبل حكام دلهي فانهم كانوا يميلون إلى ممارسة سلطاتهم كحكام ذوي سيادة منفصلة مما طبع هذا الإقليم بطابع الاستقلال السياسي ومنحه هويته المتميزة في الحكم منذ بداية الحكم الإسلامي. وفي الواقع فإنه ومنذ القرن الرابع عشر وحتى الربع الأخير من القرن السادس عشر للميلاد تعاقب على حكم الإقليم في الغالب حكام أقوياء مستقلون. كما شهد هذا الإقليم ازدهاراً كبيراً تحت حكم بعض أولئك السلاطين والحكام الأقوياء حيث ازدهرت حركة الآداب والعلوم وتنامت العلاقات والروابط الثقافية التي تربطه بالعالم القديم. وقد شهدت تلك الفترات توافد رسل حكام الصين على الإقليم بينما سافر سلاطين البنغال غربا حتى مصر في إطار توثيق الروابط والعلاقات الدبلوماسية مع العالم الإسلامي. وفي أواخر القرن السادس عشر الميلادي تمكن الإمبراطور المغولي أكبر (The Mughal emperor Akbar) أن يخضع إقليم البنغال تحت قبضته. وبالرغم من أن دور إقليم البنغال كان قد اضمحل ليكون إقليما صغيرا تابعا لإمبراطورية المغول إلا أنه كان لا يزال حتى تلك الحقبة من أغنى أقاليم جنوب شرق آسيا، وكانت موانئه معبرا للعديد من حجاج جنوب و شرق آسيا أثناء رحلاتهم إلى مكة والمدينة في مواسم الحج والعمرة. ويمثل موسم الحج ملتقى للمسلمين من كافة أنحاء العالم وهو بلا شك فرصة للتفاعل والتلاقح الفكري بين الكثير من المسلمين.

وبصورةٍ عامة يمكن التأكيد على أن تاريخ المخطوطات في الامبراطوريات الإسلامية في جنوب شرق آسيا حافل وغني وثرىَ ، وينطبق ذلك بصورة خاصة على ما كتب بالفارسية مما يتوفر منها لدى السلطات المركزية في دلهي حيث سجلت العديد من الشواهد والأحداث لمختلف السلاطين والملوك الذين تعاقبوا على الحكم في دلهي. أما فيما يتعلق بالبنغال فإنه لا توجد الكثير من المخطوطات التاريخية التي تسجل تاريخ الممالك والسلطنات التي تعاقبت على تلك المنطقة. ومما لا شك فيه أننا لم نتحصل إلا على النزر اليسير مما كتب عن تلك الفترة. ولعل من الشواهد على المخطوطات الضائعة عن تلك الفترة، إحدى المخطوطات التي دونت باللغة الفارسية والتي تصور العهد الأول للحكم الإسلامي في البنغال والتي عثر عليها فرانسيس بوجانان في أحد أضرحة بندوه في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي وذكرها في كتابه "وصف جغرافي وإحصائي وتاريخي لمقاطعة ديناجبور في بالبنغال – كلكتا 1833 م ". ولا ريب في أن هناك العديد من العوامل التي تضافرت وأدت إلى فقدان أو ضياع المصادر المخطوطة، مثل الكوارث الطبيعية والفيضانات والحرائق. كما أن فصل المطر الطويل والطقس الرطب في البنغال يجعل أمر المحافظة على هذه المخطوطات أمرا بالغ الصعوبة.

ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في ندرة المصادر عن التاريخ الإسلامي لمنطقة البنغال، الطريقة التي كان يتعامل بها مؤرخو الامبراطورية في دلهي مع المنطقة، إذ لم يكن الكثير منهم يحرصون على تسجيل ما يدور في تلك المنطقة نظرا لبعدها عنهم. وحتى عندما يتم كتابة أو تسجيل شيء عنها فإن ذلك غالبا ما كان يعكس وجهة نظر رسمية خصوصا ما يتصل بأخبار البعثات العسكرية التي كانت الحكومة المركزية ترسلها لإخضاع الإقليم الذي كان حكامه يميلون عادة إلى التمرد على

سلطان الحكومة المركزية. وحيث إن المخطوطات التي تسجـل ذلك تكتب غالبا في العاصمة دلهي فإنها تحمل بين طياتها علاوة على التحيز المدني ضد المناطق الريفية النائية وجهة النظر الحكومية وبالتالي فإنها نادراً ما تمثل مصدراً محايداً للمعلومات عن هذا الإقليم. وبالرغم من الاهتمام الكبير الذي حظي به تسجيل التاريخ السياسي لمنطقة البنغال خلال فترة الحكم البريطاني (1757م-1957م) إلا أن القليل جداً من المؤرخين استطاعوا سرد تاريخ تلك المنطقة بحياد وتجرد. وقد كتب هنري بيفرلي- أول من تحدث عن التركيبة السكانية للإقليم- واصفاً سكان الإقليم بأنهم "ثلة من أروميات البنغال شبه البرمائية" (انظر: التقرير الإحصائي للبنغال – 1872م ، الفقرة 525). ولكن من المهم جدا أن نذكر أنه لم يسجل إلا القليل جدا عن كيفية دخول وانتشار الإسلام في منطقة البنغال والذي يعد من التحولات العقدية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية البارزة التي أثرت في المنطقة خلال العقود التالية. ولا شك في أن هذا الجانب المتصل بكيفية انتشار الإسلام في المنطقة يعد من الجوانب المهمة التي لا تزال بحاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب. يوليو

هذه الدراسة لا يقتصر فقط على استعمال وسائل بحث حديثة وإيراد معلومات جديدة عن المنطقة وإنما يسعى أيضاً إلى إيجاد تفسير جديد وفهم معاصر لحركة التحول والتفاعل الإسلامي في أحد أقاليم الشرق الإسلامي. وبينما لا يملك المرء إلا أن يرقب برهبة وجلال اتساع وازدهار الحضارة الإسلامية في إقليم البنغال إلا أن هناك العديد من الأسئلة التي لا تزال دون إجابة فيما يتصل بالتفاعل والتمازج الإسلامي بالمنطقة. ومن بين الأمور المهمة محاولة التعرف على كيفية تحول هذا إقليم البنغال إلى منطقة ذات كثافة وتمركز إسلامي غالب، بينما نجد أن هناك العديد من المناطق في شبه القارة الهندية لم تتعرض لمثل هذا التحول البارز.

أن هدف هذا المقال هو محاولة الإجابة على العديد من التساؤلات في هذا المجال و كذلك تحليل النظريات الحالية التي تفسر أو تناقش عوامل رسوخ الإسلام في المنطقة مثل الهجرات الضخمة لجموع المسلمين إلى المنطقة واعتناق العديد من السكان الأصليين البسطاء للإسلام ، وكذلك بروز الإسلام كعقيدة وأسلوب حكم وطرق تنظيم إداري و اقتصادي إضافة إلى دوره الفاعل في تطور المجتمع وتغيير النمط السائد في حياة المجتمع وتدل النقوش والشواهد الكتابية الأثرية إلي جانب ذلك على حدوث تغير في المفاهيم القديمة وبروز مفاهيم جديدة مبتكرة.

شبه أحد الإداريين الاستعماريين الفرنسيين العالم الإسلامي بصندوق الصدى حيث إن أقل كة في أي ركن منه ترجّع صدى عبر الصندوق بكامله. وكما هو الحال في بقية أنحاء العالم فان هذا التشبيه قد تجسد في إقليم جنوب شرق آسيا المعروف تاريخيا على أنه إقليم البنغال بر كثافة إسلامية في العالم الإسلامي. وفي هذا العصر الذي أسهمت فيه أجهزة يل العالم إلى قرية عالمية صغيرة فإن من المهم أن نفهم العالم الإسلامي سوصا أنه أصبح يمثل الآن خُمس سكان الكرة الأرضية. ولا شك في أن تنف الآن المجتمعات الإسلامية في كافة نواحي حياتها الاجتماعية ونظمها تنعكس بصورة أوضح في المجتمعات الإسلامية لدول الشرق الإسلامي

خصوصا مجتمعات جنوب شرق آسيا. وفي حين نجد أن التطرف قد أسهم كثيرا في ازدياد التوترات بين الجماعات العرقية والثقافية المختلفة إلا أننا نلاحظ أيضا أن هناك بعض الخلط وسوء الفهم لطبيعة الإسلام وأطره، مما يجعل هناك حاجة ماسة إلى فهم أعمق لتاريخ الحضارة الإسلامية والعقائد والتراث الثقافي في العالم بأسره. وبالرغم من أن الهدف الرئيسي لهذا المقال هو دراسة وتحقيق بعض النقوش الكتابية الإسلامية النادرة في البنغال ومحاولة إيجاد تفسير تاريخي لكيفية انتشار الإسلام في هذا الإقليم إلا أن ذلك سيساعد كذلك على فهم الموروث الحضاري والثقافي لهذا الإقليم.

إن انتشار الإسلام في البنغال يعد من الظواهر المتشعبة بحيث يحتاج البحث فيه إلى نطاق محدد وإطار واضح. وكما هو واضح من العنوان فإن المشروع يركز على موضوع " انتشار الإسلام من منظور تاريخي وأثري " مستخدما النقوش الكتابية الأثرية كمصدر رئيسي للبحث. ومن حسن التوفيق فأن إقليم البنغال غني بتراثه الثر من حيث توفر النقوش الكتابية الأثرية كنزا ثمينا من المادة التاريخية المتنوعة التي لم تدرس بعد. ولا أعتقد أننا نبالغ في التأكيد علي أن هذه النقوش الكتابية الأثرية تمثل سجلاً صادقاً لمطلع التاريخ الإسلامي في المنطقة.

وبالرغم من ذلك تبقى هذه المهمة عسيرة وشاقة. ذلك أن النقوش الكتابية الأثرية نادراً ما تقدم المعلومة على نسق منتظم بل تكون المعلومات في الغالب متناثرة ومبعثرة هنا وهناك وتحتاج إلى جهد في تجميعها وتنسيقها لتمثل كلا متكاملاً. وفي حين أن المقال يركز على دراسة النقوش الكتابية الأثرية في الإقليم إلا أنه يضع أيضا المعلومات المستخلصة في سياقها التاريخي الصحيح وصولا إلى فهم صحيح وموثق لكيفية انتشار الإسلام في المنطقة. وكما تستخدم أيضا مصادر تاريخية أخرى متاحة.

ويبلغ عدد النقوش الكتابية المختصة بفترة الدراسة حوالي ٤٠٠ نقش (400 Islamic Inscriptions) تقريباً. وفي الوقت الذي كانت معظم نقوش فترة ما قبل الحكم المغولي (The Mughal Rule)قد كتبت باللغة العربية فإن نقوش العهد المغولي كتبت بالفارسية. وبصورة أساسية فان هناك العديد من النقوش الكتابية الأثرية المعمارية التي تعطي معلومات عن بناء الصروح الإسلامية مثل المساجد ومدارس العلم وغيرها. وتتضمن العبارات الدينية الواردة في معظم هذه النقوش نصوصاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف. ولا شك في أن دراسة تلك النصوص تعين على فهم التوجهات والتحولات العلمية والمذهبية التي مر بها الإقليم. وسيكون أحد مقاصد هذه الدراسة استقصاء تلك النقوش وتفسيرها ومحاولة الوصول إلى فهم أعمق لكيفية انتشار الإسلام في تلك البقاع.

ومن جانب آخر، فإن هذه النقوش تشمل علي ذكر العديد من العلماء والفقهاء المسلمين. ومن ثم فإنها تمثل مصدراً مهماً في معرفة آفاق التعليم وتطوره. كما تركز الدراسة على التاريخ الفكري للمسلمين لسكان المنطقة. وتشمل على سبيل المثال تعريفا بالمدارس والمعاهد العلمية البارزة آنذاك والبحث في إمكانيات التواصل والربط فيما بينها وكيفية تناقل الأفكار والمذاهب وتقييم المقررات الدراسية والعلاقات بين المعلمين والدارسين والتعرف على القدرات الفكرية والتحصيلية خلال تلك الحقبة.

تعريف عام بالبنغال:

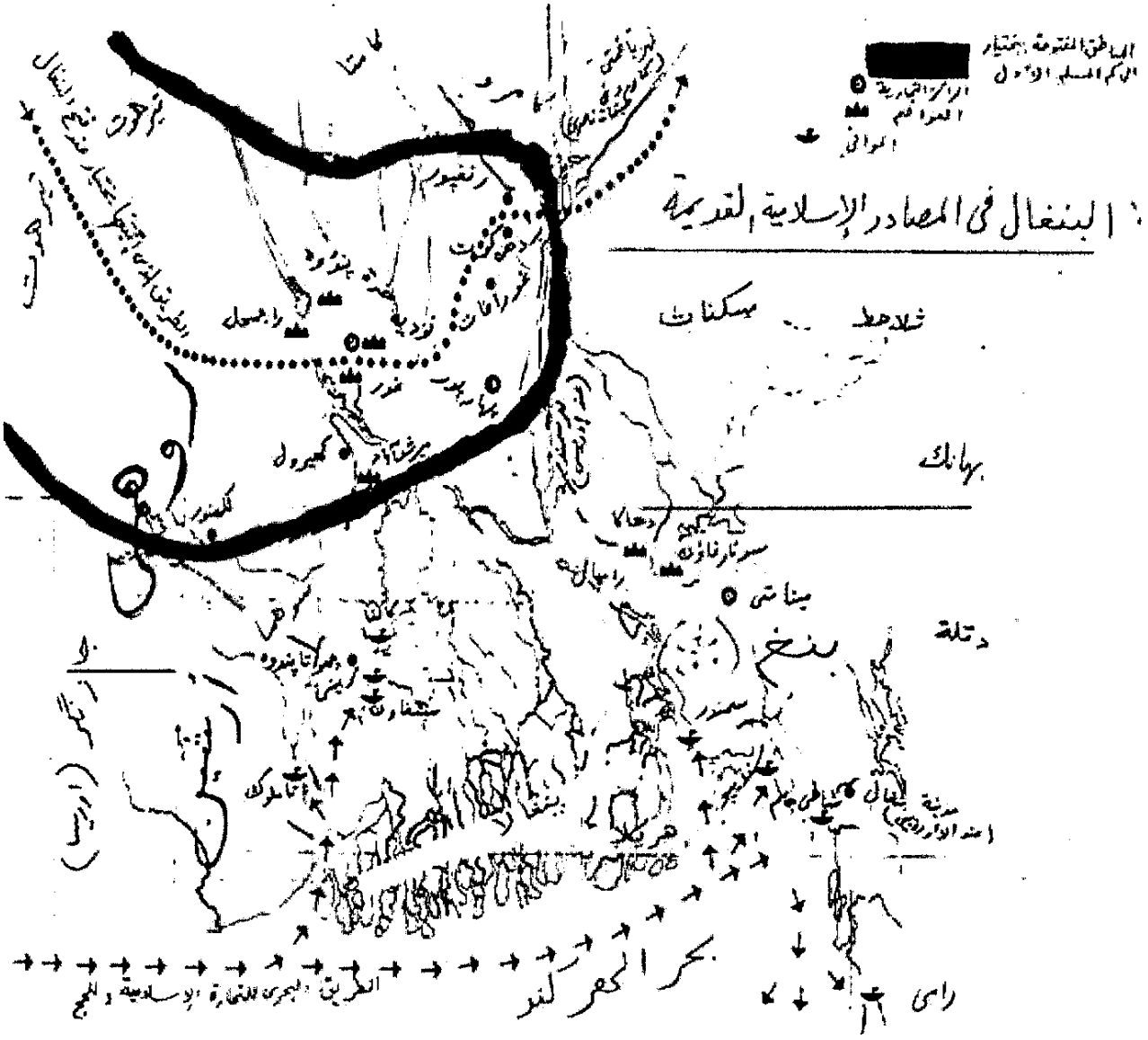

تقع البنغال في الجنوب الشرقي لشبه القارة الهندية، وكانت تعد من أكبر الولايات الهندية حينما كانت جزءاً سياسيا وإداريا من الهند المتحدة، وهي تشمل المجرى الأدنى لمعظم الأنهار في شرقي الهند مثل الكنج وجمنا وبرهمابترا [1] وغيرها ولذلك أطلق عليها بلاد الأنهار. وكلمة البنغال أصلها في اللغة بنغالا أو بنغلا، وهو مصطلح جغرافي مشتق من كلمة بنغ وتعني الشعب غير الآري في البنغال، ثم أصبح يطلق على جميع السكان في المناطق التي عرفت أخيراً بالبنغال[2].

ويذكر أبو الفضل في آئيين أكبري (*Ain-e-Akbari*) أن الاسم الأصلي للبنغال هو بنغ، وكان ملوكه الأوّلون يقيمون في آكام مرتفعة كلّ أكمة منها عشر ياردات وعرضها عشرون ياردة في جميع أنحاء الولاية المسماة آل أو آلي بالسنسكريتية، وبمرور الزمن ضمّت هذه الأحرف الأخيرة إلى كلمة بنگ فصارت "بنغال"[3]، وأطلق اسم بنغالا على قسم صغير في جنوب البنغال الشرقية، بينما أطلق اسم بنگ على مساحة أوسع في الجهات الشرقية والجنوبية كما ورد في السجلات السنسكريتية، واشتهرت الأجزاء الغربية باسم رار والأجزاء الشمالية باسم ورندره، وبقي هذا التقسيم الجغرافي على تلك الحال حتى بداية الحكم الإسلامي، وقد أشار إلى مثل هذا التقسيم المؤرخ الإسلامي مولانامنهاج الدين عثمان سراج الدين، غير أن البعض أضاف إلى ذلك مصطلحات أخرى مثل إقليم لكنهوتي ودولة لكنهوتي وإقليم غور للدلالة على الأراضي الخاضعة لحكم المسلمين، واستخدم آخرون مصطلحات كديار بنغالا وغيرها كما فعل المؤرخ ضياء الدين برني للدلالة على المنطقة نفسها من شرقي البنغال، وقد قام السلطان إلياس شاه (743هـ-758هـ/1342م-1357م) بتوحيد كلّ من رار وورندره وبنگ تحت إدارة واحدة في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[4]، وبدأ يطلق على جميع هذه الأراضي فيما بعد اسم البنغال، وأطلق اسم بنغالا على مساحة شاسعة من الأرض ضمّت دلتا الغنغ بكاملها.

وظلت حدود البنغال متغيرة غير مستقرة وخاصة الغربية والشمالية الشرقية منها بسبب التقلبات السياسية في المنطقة إلى أن دخل المغول البنغال وأمر الإمبراطور المغولي أكبر برسم حدود البنغال رسماً دقيقاً، وكان يحدّها آنذاك من الجنوب بطائح سندربن وغاباتها الكثيفة والتي كانت تشكل نوعاً من الحاجز الطبيعي بينها وبين منطقة أوريسا في الجنوب الغربي، أما حدودها الشرقية فقد كانت تساير مجرى بعض الأنهار خاصة نهر ميغهنا جهة الشمال، وتنعطف شرقا فتضم سلهت وتمر بالمنحدرات السفلى للمنطقة الجبلية في جنوب آسام حتى تصل إلى نقطة على نهر براهماپترا بالقرب من دوبري غر، ثمّ تمتد التخوم الشمالية من تلك النقطة غرباً مارة بجنوبي دولة كوچ بهار حتى تصل إلى نهر كوشي. أما حدودها الشمالية والغربية فكانت تمتد من وراء هذا النهر بقليل، ولكنها كانت تضم عادة تلياغر وراجمحل، وكانت حدودها في الغرب تصل أحيانا إلى غابات جهاركهند والتي كانت تشكل حاجزا طبيعيا بين البنغال وأوريسا، وتمتد هذه الحدود في الجنوب الغربي إلى هوغلي وهاووره وهما من المدن التي عثر فيها على نقوش إسلامية عديدة.

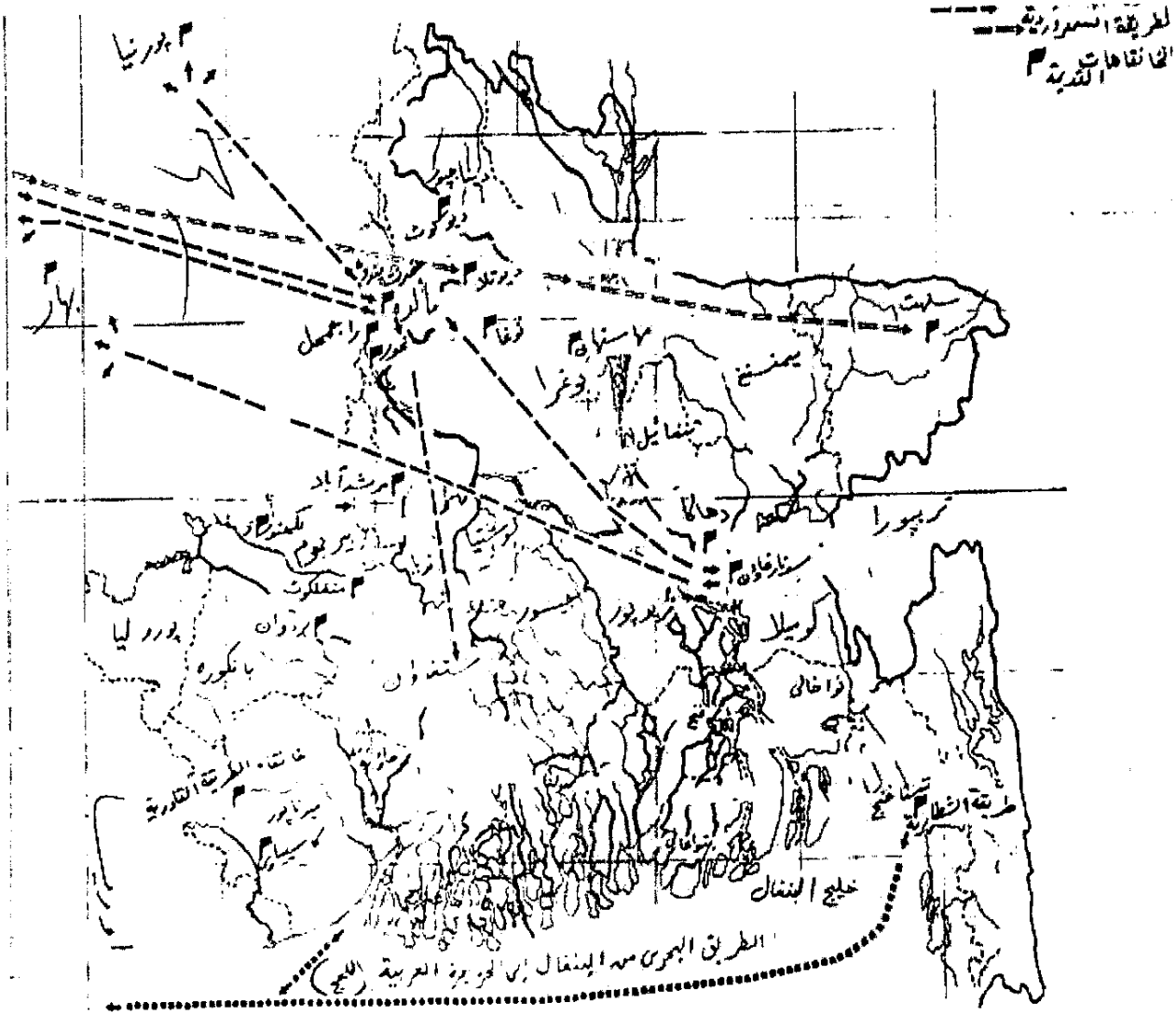

الخريطة رقم (٥) : المراكز والحركات الصوفية في البنغال عبر العصور

هذا من الناحية الجغرافية، أما من الناحية السياسية والتاريخية فكانت حدود البنغال غير ثابتة وذلك لأن سلاطين البنغال كانوا يعملون دائما على توسيع رقعة أراضيهم، لذلك كثيراً ما تجاوزت حدود مملكتهم تلك الحدود التقليدية للبنغال، ففي عهد كلّ من إلياس شاه وباربكشاه وحسين شاه كانت المملكة تضمّ معظم أراضي بهار في الشمال الغربي، واجتازت جيوش حسين شاه نهر غومتي ليضمّ لمملكته أراضي تريبورا،[5] وفتح بعض السلاطين أجزاء من كامروب وكامتا وكوج.

وفي هذا البحث سنحاول دراسة جميع النقوش الكتابية العربية الإسلامية التي عثر عليها في الأراضي التي كانت خاضعة لحكام البنغال وقت نقشها من غير مراعاة للتقسيم السياسي أو الإداري المعاصر، وكذلك سيكون الحديث عن البنغال المعروفة في التاريخ لا المفهوم الشائع لها اليوم.البنغال التي تشمل بنغلاديش الحالية وولاية البنغال الغربية في الهند وكذلك بعض أجزاء ولاية بهار وآسام الحالية والتي تقع ضمن الإقليم الجغرافي للهند في الوقت الحاضر.

الصلات المبكّرة بين العرب والبنغال:

تعود العلاقات بين العرب والبنغال إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه السلام كما تصرح بذلك بعض المصادر القديمة، ومن أقدم هذه المصادر التى تشير إلى ذلك المخطوطة اليونانية (Periplus of the Erythraean Sea)،[6] حيث ورد فيها أن العرب كانوا يسافرون الى شواطئ الهند والبنغال بالسفن الشراعية لأغراض تجارية.

وكانت مدينة شتاغنغ والتي تقع على خليج البنغال معروفة عند الملاحين العرب، فقد كانوا ينزلون في هذا المرفأ ويتبادلون عنده البضائع التجارية، وأغلب الظن أنهم كانوا ينطلقون من ذلك الميناء براً إلى الشرق الأقصى كبلاد التبت والصين، كما أن بعضهم كان يسافر الى أراكان وبورما، وهذا يدل على أن الصلات التجارية بين البلاد العربية وبلاد الهند عن طريق البر والبحر كانت معروفة منذ عهد قديم، وأن التجارة كانت مزدهرة وبشكل خاص في العصر الهلنيستي، ويبدو أنه كان للتجار العرب هيمنة على تلك التجارة آنذاك، ولعلّ ذلك يرجع إلى نشاط عرب البحرين وعمان وسواحل الجزيرة العربية وبقية بلدان الخليج العربي في الملاحة البحرية وزيادة إقبالهم على تجارة الشرق، واستمر نشاطهم البحري طوال العصور الجاهلية وبعد ظهور الإسلام ونجح العرب في تكوين جاليات لهم على سواحل الهند خلال تلك الفترة من التاريخ [7].

ويعتقد أن العرب المسلمين كانوا قد دخلوا أراضي البنغال قبل وصول الجيش الإسلامي، فالحفريات الأثرية في پاهارپور وميناميتى قد كشفت عن مسكوكتين عباسيتين ترجعان إلى عهد الخليفة هارون الرشيد وأبي أحمد عبدالله المستنصر بالله، وهذا يدل على وجود مثل تلك الصلات بين العرب والبنغال في العصر العباسي، وقد قام التجار العرب خلال تجوالهم في المناطق المختلفة يدعون الناس من غير المسلمين إلى الإسلام بالقدوة الحسنة، فكان سلوكهم وصدق معاملتهم يقرّب من يتعامل معهم إلى الإسلام، وتشير الروايات إلى الجهود العظيمة التي قام بها كثير من العلماء والدعاة إلى الله في نشر الإسلام في تلك البلاد والدعوة إليه وذلك قبل أن تصل الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى البنغال، وتشير بعض الروايات المحلية إلى وجود أضرحة لبعض رجال الصوفية تعود في تاريخها إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي للبنگال غير أن هذه الروايات المحلية ليس لها سند تاريخي ثابت[8].

ولم تزدهر العلاقات البنغالية العربية بشكل ملحوظ إلا بعد الفتح الإسلامي للبنغال وذلك في عام 601هـ/1205م، ومما لا شك فيه أن هذا الفتح قد لعب دورا كبيرا في توثيق الروابط الدينية والثقافية بين العالم العربي الإسلامي والبنغال وساعد على انتشار الإسلام بين أهالي البنغال حيث اعتنق كثير من البنغاليين الإسلام واتجهوا إلى دراسة اللغة العربية وتدريسها في المدارس الإسلامية في البنغال، وتأثرت اللغة البنغالية بتلك التغيرات السياسية والثقافية حيث أدخل فيها كثير من الكلمات العربية كما تأثرت أصوات بعض اللهجات البنغالية بالأصوات العربية.

وعلى الرغم من أن الجيوش الإسلامية التي شاركت في فتح البنغال واستوطنتها كانت أغلبيتها من وسط آسيا من غير العرب ممن يتكلمون لغة پشتو أو اللغة الفارسية أو التركية إلا أن البنغاليين انكبوا على دراسة اللغة العربية لأنها كانت لغة القرآن الذي آمنوا به، وقامت المدارس الإسلامية في تلك البلاد وما تزال تفعل ذلك حتى يومنا هذا حيث يقوم أهل البنغال بتدريس معظم المواد الدينية باللغة العربية في مدارسهم، هذا بالإضافة إلى موادّ اللغة العربية وقواعدها وآدابها وعلومها المختلفة.

وبعد دخول المغول إلى البنغال شاع استخدام اللغة الفارسية في المجال السياسي والثقافي وأسهمت البنغال في الأدب الفارسي أيضا، بل ربما كان إسهامها في الأدب الفارسي أكبر منه في الأدب العربي، ولعل ذلك يعود إلى أن اللغة الفارسية كانت هي اللغة الرسمية في تسعة من أقاليم شبه القارة الهندية وكذلك للاتصال المباشر بين الهند والفرس وذلك على خلاف بلاد العرب فقد كان يفصل بينها وبين الهند بحار.

وجدير بالذكر أن ابن بطوطة (1304م- 1369م) الرحالة العربي المشهور كان قد قام بزيارة البنغال في القرون الوسطى وذلك أثناء رحلته حول الهند، فزار مدينة سدكاون وهي غالبا مدينة شتاغنغ الحالية في بنغلاديش، وكذلك زار مدينة سونارغون وهي تقع بالقرب من مدينة دهاكا الحالية، وتكلم عن الأحوال السياسية والأوضاع العامة التي كانت سائدة في البنغال آنذاك، ووصف البنغال بأنها كانت بلادا متقدمة حضاريا وعمرانيا[9]، وكذلك تكلم المؤلف سليمان بن أحمد بن سليمان المهري عن بعض مدن البنغال، فكتب في كتابه "المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر" عن شتاغنغ والتي كانت معروفة آنذاك بمدينة شاتي جام[10] وعن جزيرة سندبو الواقعة قريبا من شتاغنغ وتكلم كذلك عن ميناء صادجام وعن بنجالة في كتابه الآخر "العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية"[11].

تاريخ حكم المسلمين في البنغال قبل المغول:

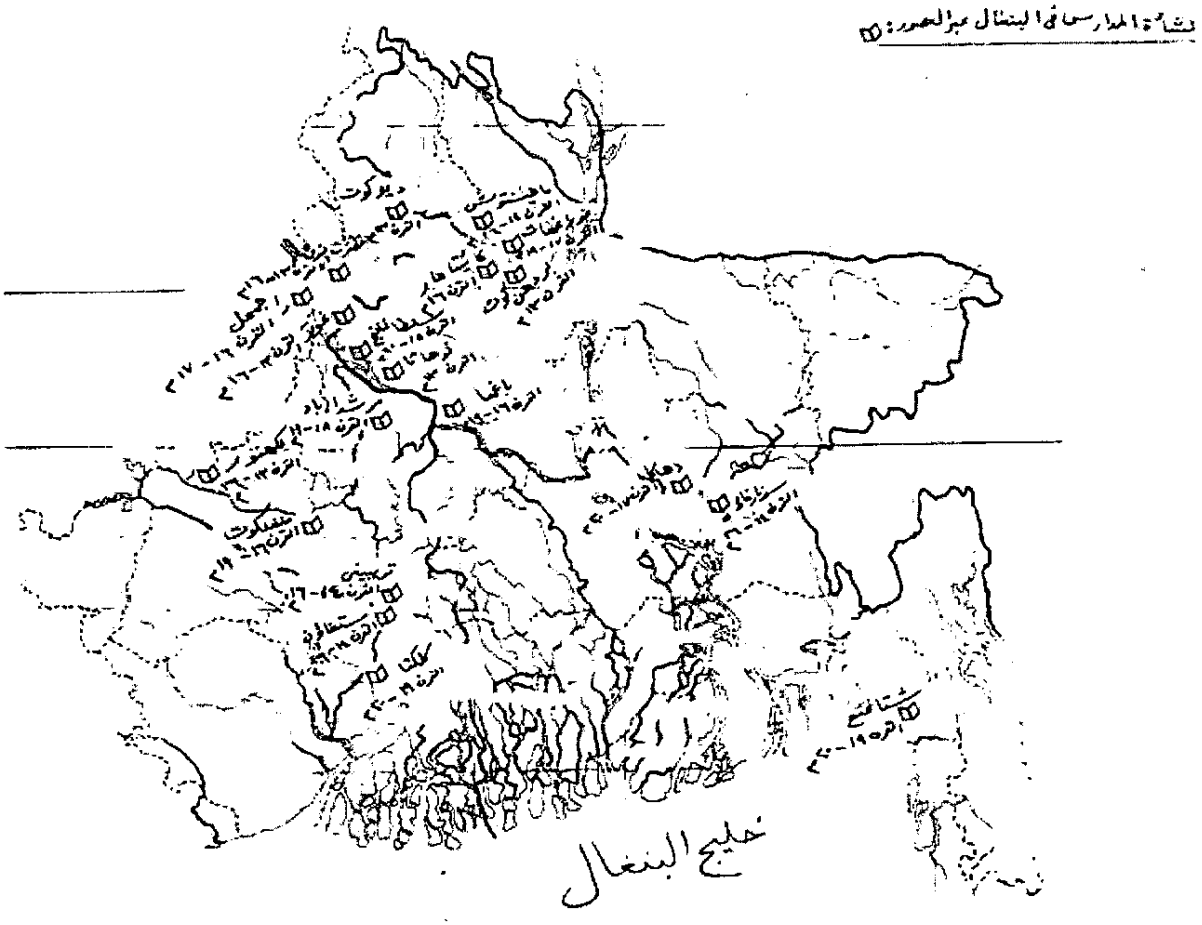

كانت البنغال قبل الفتح الإسلامي خاضعة لحكم أسرة هندوكية من بيت يدعى سين Sen، وكانت عاصمتها نودية، بينما كانت مدينة بهار واقعة تحت حكم أسرة بوذية من بيت يدعى بال، وقد تمّ الفتح الإسلامي لها على يد اختيار الدين محمد بختيار خلجي أحد كبار قادة الجيش في عهد معز الدين الغوري حاكم الهند، حيث كان المسلمون آنذاك قد فتحوا بلاد الهند منذ عهد قريب ثمّ ضم اختيار الدين البنغال ومعظم أجزاء بهار شرقي الهند للدولة الإسلامية الهندية، وفي عام 601هـ/1205م هاجم اختيار الدين مدينة نودية بثمانية عشر (18) فارساً فقط، وتمكن من السيطرة عليها قبل أن يتسنّى لباقي الجيش اللحاق به، وقد فوجئ لكشمن سين آخر ملوك نودية الهندوك بذلك الهجوم الخاطف، ففرّ نحو الشرق حيث لجأ إلى بكرمبور والتي تقع بالقرب من دهاكا الحالية.[12]

ولم تفتح البنغال كلها في بداية الحكم الإسلامي، فلم يكن بيد المسلمين في البداية سوى الجزء الشمالي الغربي منها، وكانت البنغال ولاية من ولايات سلطنة دلهي وكان حكامها يعيّنون من دلهي ذاتها والتي

كانت عاصمة الهند الإسلامية، غير أن حكام البنغال كانوا يتمتعون بنوع من الحكم الذاتي وذلك لبعد البنغال عن دلهي من ناحية ولضعف سلاطين دلهي عسكرياً وإدارياً من ناحية أخرى، وقد حاول بعض حكام غور الاستقلال عن دلهي كما قام بعض حكام الجزء الشرقي من البنغال والذي كان معروفاً باسم بنغ بإعلان استقلالهم بتلك المنطقة في أواخر تلك الفترة والتي استمرت قرابة ثلاثة وثلاثين ومائة (133) عام، وقد بلغ عدد حكام تلك الفترة حوالي خمسة وعشرين (25) حاكماً.

أما الفترة الثانية من حكم المسلمين للبنغال فقد استمرت حوالي قرنين من الزمان (739هـ/1338م حتى 945هـ/1537م)، وبلغ عدد سلاطين المسلمين فيها أربعة وعشرين (24) سلطاناً، ولم يخضع سلاطين هذه الفترة لحكومة دلهي بل كان لهم حكمهم الذاتي في البنغال، واتخذوا في الغالب مدينة غور عاصمة لهم واتخذ بعضهم پنڈوه كعاصمة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان إلياس شاه والذي استلم الحكم في البنغال عام 743هـ/1342م كان قد قام بعد استلامه الحكم بتوحيد البنغال تحت سلطنته، وكذلك بتوسيع حدود بلاده في المناطق المجاورة مثل بهار وغيرها، ومن سلاطين تلك الفترة أيضاً السلطان غياث الدنيا والدين أعظم شاه، ومما يؤثر عنه أنه قام بالتبرع لإنشاء مدرسة ورباط في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد تم إنشاؤهما بالقرب من أحد أبواب المسجد الحرام في عام 814هـ/1411م، وأنشئت في الوقت نفسه مدرسة أخرى بالقرب من أحد أبواب المسجد النبوي بالمدينة المنورة[13].

وفي نهاية حكم السلطان غياث الدنيا والدين أعظم شاه ظهرت قوة أخرى في بلاد البنغال تزعّمها أمير هندوكي يدعى غنيش، وقد قام هذا الأمير بخلع السلطان علاء الدنيا والدين فيروز شاه آخر سلاطين أسرة إلياس شاه، ثم أمسك بعد ذلك بزمام الحكم وكان ذلك عام 817هـ/1414م غير أن هذا الأمير توفي بعد ذلك بأربعة أعوام ليخلفه ابنه الذي اعتنق الإسلام بعد وفاة أبيه وعرف بمحمد شاه الملقب بجلال الدنيا والدين وعادت بذلك السلطة للمسلمين، ولم يمض زمن طويل بعد وفاة جلال الدنيا والدين حتى انتقلت السلطة إلى أحفاد إلياس شاه مرة أخرى، وقد اشتهر معظم هؤلاء بحرصهم على الصالح العام لشعوبهم وعملهم الدؤوب على توفير وسائل الحياة الكريمة لهم، كما عرف عنهم إدراكهم الواسع للتركيبة النفسية لشعب البنغال ومعرفة عاداته وتقاليده، ومن أشهر هؤلاء السلاطين السلطان ناصر الدنيا والدين محمود شاه والسلطان ركن الدنيا والدين باربكشاه والسلطان شمس الدنيا والدين يوسف شاه والسلطان جلال الدنيا والدين فتحشاه.

وفي عام 893هـ/1487م سقطت دولة هؤلاء على يد حرسهم من المماليك الأحباش، وكان أول سلاطينهم السلطان شهزادة والذي قتل السلطان فتحشاه آخر سلاطين أسرة محمود شاه، غير أنه لم يدم في الحكم سوى أربعة أشهر حيث قتل على يد أحد الأمراء الأقوياء ويدعى ملك عنديل والذي استولى على الحكم بعد ذلك لمدة ثلاثة أعوام تقريباً، وكان يلقب بسيف الدنيا والدين فيروزشاه، وتولى الحكم من بعده ركن الدنيا والدين محمود شاه، ثمّ خلفه شمس الدنيا والدين مظفر شاه، وفي عام 899هـ/1494م انتهت حكومة الأحباش على يد حسين شاه الذي كان يشغل منصباً هاماً في حكومة الأحباش، وفي عهد حسين شاه ساد الأمن في البلاد وعمّها الرخاء والرفاهية، وقد حكم هذا السلطان البلاد حوالي سبعة

وعشرين عاماً، واستمرّ أحفاده في حكم البنغال حتى عام 944هـ/1537م [14]، وذلك عندما قام شيرشاه سوري وهو أفغاني الأصل بفتح مدينة غور عاصمة السلطان محمود شاه آخر سلاطين تلك الفترة ثمّ ضم البنغال في النهاية إلى دولته الهندية المتحدة والتي كانت عاصمتها مدينة دلهي.

وبذلك انتهت تلك الفترة التاريخية من حياة البنغال والتي سمّاها كثير من المؤرخين بعهد السلاطين أو العصر السلطاني The Sultani Period، ومن أهم المراجع التاريخية لتلك الفترة كتاب "تاريخ البنغال في عهد السلاطين" للدكتور عبد الكريم، وقد طبع هذا الكتاب باللغة البنغالية في دهاكا عام 1977م.

قيام الدولة المغولية في الهند وحكمها في البنغال:

حكم المغول بلاد الهند في الفترة ما بين 932هـ/1526م و 1273هـ/1857م، وكانت حكومتهم تعدّ من أعظم الحكومات في شبه القارة الهندية، ويعود تأسيس الدولة المغولية الهندية إلى ظهير الدين محمد بابر الذي ولد عام 888هـ/1482م في فرغانة وهي إمارة صغيرة في آسيا الصغرى، ووالده عمر شيخ مرزا حاكم فرغانة ينحدر من سلالة تيمور لنك، بينما تنحدر أمه من سلالة جنغيز خان، وقد ورث بابر حكومة فرغانة وهو بعد في الثانية عشرة من عمره، وكان يجاوره حكام لهم أطماعهم في ضمّ أراضي فرغانة إلى دويلاتهم[15]، وفي عام 930هـ/1503م استطاع شيباني خان زعيم الأزبك أن يستولي على فرغانة، فقام بابر بالاستيلاء على سمرقند، لكنه سرعان ما فقدها هي الأخرى، ثم قام بالاستيلاء على كابل دون إراقة للدماء وحكم كابل وهو في مستهلّ العام الثالث والعشرين من عمره، وقام بتنظيم شئون دولته الجديدة، وفي عام 932هـ/1526م استطاع بابر أن يستولي على البنجاب ثم قضى على السلطان إبراهيم لودهي في موقعة پانيپت Panipat في جمادى الآخرة من ذلك العام، وسارع بعد ذلك إلى فتح دلهي وآغره Agra ، وهكذا قامت الدولة المغولية في الهند.

وبالرغم من الظروف الصعبة والأحوال السياسية المتقلبة التي عاشها بابر في بداية عمره إلا أنه كان يعد من أعظم حكام المسلمين في عصره، واشتهر كذلك بمواهبه الفنية وقدراته العلمية فقد كان شاعراً وأديباً وناقداً فنيا كما كان خطاطاً ماهراً، وقد خلف ديواناً باللغة جغتائية Chugtai وهي لهجة من اللهجات التركية، وله أيضاً بعض الأبيات باللغة الفارسية، ويقال أنه جدّد في العروض والقافية باللغة جغتائية ووضع بعض الأوزان الجديدة للشعر، وينسب إليه خط بابري، وقد ترجمت سيرته الخاصة " تزك بابري " إلى كثير من اللغات يصف فيها بلاد الهند بالتفصيل ـ جبالها وأنهارها وحيواناتها وطيورها ونباتها وثمارها،[16] ومما سجّله أيضا في مذكراته عدم رضاه عن استيطانه في تلك البلاد وشعوره بالغربة عن وطنه.

وخلف بابر ابنه همايون في التاسع من جمادى الأولى عام 937هـ/1520م، وقد ورث ملكاً مثقلا بالأعباء والصراعات السياسية، حيث انتهز المعارضون للحكم فرصة وفاة أبيه فاجتمعوا تحت قيادة شيرشاه سوري زعيم الأفغان، واستطاع شيرشاه هذا أن يهزم همايون هزيمة نكراء، وأصبح بذلك ملكاً

للهند بلا منازع، وفرّ همايون إلى منطقة السند ثم لجأ إلى بلاد إيران، ورحّب به الشاه طهماسب الصفوي حاكم إيران أفضل ترحيب، واغتنم همايون فرصة وجوده في إيران ليتعرّف على معالمها الحضارية وصناعاتها وفنونه، وعندما علم بوفاة شيرشاه قام بتجهيز جيوشه ليسترد بلاده السليبة، وأعانه الصفويّون في ذلك، واستطاع الاستيلاء على قندهار وكابل ثم تقدم نحو الهند وقضى على سكندر سوري آخر حكام أسرة شيرشاه، واستولى على دلهي وأعاد بذلك ملكه الضائع[17]، وكان همايون قد قابل الكثير من الفنانين والصناع أثناء إقامته في إيران ووعدهم إن هو استعاد حكمه أن يستضيفهم في بلاده، وفعلاً قام همايون بدعوة الكثيرين منهم للعمل في بلاده وذلك بعد أن استتب له الأمر فيها، ومن أشهر هؤلاء الفنانين عبد الصمد الشيرازي وكان خطاطا ماهرا، وقد لقبه همايون بلقب شيرين قلم، وكذلك مير سيد علي التبريزي وكان من أشهر الخطاطين والمصورين في تلك الفترة ولقبه همايون بلقب نادر الملك، وبالرغم من أن همايون لم يحكم الهند إلا سنوات قليلة إلا أنه ترك وراءه نهضة علمية وثقافية رائعة، وقد كتبت شقيقة همايون غلبدن Gulbadan مذكرات وصفت فيها النهضة الثقافية والفنية في تلك البلاد، ووصفت أيضاً كيف أمضى همايون أيامه في إيران[18].

وبعد وفاة همايون خلفه ابنه أكبر وذلك عام 964هـ/1556م وكان لا يتجاوز الثالثة عشرة، غير أنه وبمساعدة معاونيه المخلصين استطاع أن يقضي على الفتن والاضطرابات والتي كادت تعصف بحكم أسرته، ولم تمض سنون قليلة حتى ضم إلى سلطنته بعض المناطق البعيدة مثل كشمير والبنغال وأوڑيسا، ويعتبر أكبر من أعظم السلاطين والملوك في تلك الفترة، وقد ساد الأمن في البلاد أثناء حكمه كما ازدهرت العلوم والفنون، وكان أكبر شغوفا بالفنون والعلوم والآداب، وقد ترجمت في عهده مخطوطات كثيرة من اللغة السنسكريتية والهندية إلى اللغة الفارسية والتركية، ومن أهم تلك المخطوطات أكبر نامة وآيين أكبري واللتان قام بتأليفهما أبو الفضل وهو أحد مشاهير العلماء في تلك الفترة، وكان أكبر يرعى الفن ويشجع الفنانين والمصوّرين، وكان يتزعم مجمعا فنيا يؤمه عدد كبير من الفنانين والرسامين والمصوّرين، ويعتبر عصره من أزهى عصور التصوير المغولي الهندي، وقد امتزجت في عصره الفنون الهندية القديمة مع الفنون الإيرانية، ونشأت المدرسة المغولية الهندية التي تميزت بعناصرها وأنماطها المختلفة عن غيرها من المدارس الفنية، ومع كل ذلك الاهتمام وتلك الحفاوة بالعلوم والفنون إلا أنه يؤخذ على أكبر أنه قد انحرف عن بعض أصول الدين ومبادئه وذلك في محاولاته للتوفيق بين المسلمين والهندوس، فكان مثلاً يجمع رجال الأديان المختلفة في قاعة كبيرة في مدينة فتحپورسكري تدعى عبادت خانة لمناقشة تعاليم الأديان المعروفة في الهند للوصول إلى رأي واحد، ويروى عنه أيضا أنه كان يدعو إلى دين جديد سماه دين إلهي يتضمن المبادئ الأساسية المشتركة في الأديان المختلفة[19].

ثم خلف أكبر ابنه جهانغير وكان يبلغ من العمر ثمانيا وثلاثين سنة، وورث عن أبيه دولة مستقرة يعمّها الأمن والرخاء والسلام ولم تتخلل فترة حكمه حروب كثيرة، واعتبر المؤرخون فترة حكمه وحكم ابنه شاهجهان العصر الذهبي للدولة المغولية في الهند، وقد كتب جهانغير مذكراته المعروفة باسم تزك جهانغيري وصف فيها الحركة الفنية في عهده والأعمال الفنية الرائعة، كما ذكر رحلات الصيد التي كان يقوم بها هو وزوجته نورجهان، وتجدر الإشارة إلى أن زوجته كانت تقدم له النصح في الأمور

السياسية للبلاد بل وتساهم في كثير من الأحيان مساهمة فعلية في تصريف شئون الدولة، وكان جهانغير ملكاً مثقفاً شغوفا بعلوم النبات والحيوان، وكانت لديه حظيرة تحتوي على حيوانات ندر وجودها في الهند، وكان يطلب من مصوّريه أن يقوموا بتصوير هذه الحيوانات والطيور، وقد قام المصوّر منصور والذي منحه جهانغير Jahangir لقب نادر العصر برسم صورة الديك الرومي والوعل والطائر المعروف بمالك الحزين[20]، وقد تطورّت العلاقات بين الدولة المغولية والغرب في هذه الفترة على المستوى الثقافي والتجاري، ومن ذلك ما فعله ملك بريطانيا حيث أوفد السيد توماس رو Sir Thomas Roe إلى الدولة المغولية في الهند وتأسست فيما بعد شركة الهند الشرقية.

ثم تولى الحكم بعد ذلك ابنه شاهجهان وكانت أمه هندوكية، وكان راجح العقل وافر الذكاء قوي العزيمة، وكان يعنى بالعمارة والفنون الإسلامية، وقد أسرف أيّما إسراف في صنع عرشه المعروف باسم تخت طاؤوس حيث بلغت تكاليف صنعه أكثر من ستة ملايين جنيها واستغرق صنعه حوالي سبع سنوات، وقد رصّع العرش بالجواهر النادرة وكانت قوائمه من الذهب الخاص وسقفه مطليّ بالمينا ويحمل على اثني عشر عمودا من الزمرد على كل واحد منها طاؤوسان تزينهما الجواهر ويتوسطهما الألماس والياقوت والزمرد وتتدلى منه ثلاث درجات تكسوها الجواهر والياقوت[21]، وبالرغم من أن فترة حكمه تعتبر من أزهى العصور التي عاشتها بلاده إلا أنه تعرض لبعض الثورات الداخلية كثورة راجا ججهارسنغ في بند يلكهند جنوبي الهند ولكنه استطاع القضاء عليه، غير أن المأساة الكبرى في حياته كانت بفعل أولاده الذين اختلفوا على من يكون له الحكم من بعده، فقد قام ابنه اورنغزيب Aurangzeb بالتحالف مع أخيه مراد ضد أخيهم الأكبر دارا شكوه وتغلبا عليه، ثم تقدم اورنغزيب إلى آغره Agra وحاصر أباه في قلعة آغره حتى استسلم له أبوه، ثم سجنه في جناح الحريم بالقلعة نفسها إلى أن مات في عام 1077هـ/1666م، ولم يسمح لأحد بزيارته في السجن سوى ابنته جهان آرا التي تفانت في خدمته في السجن حتى وافته المنية.

واستلم اورنغزيب الحكم في عام 1069هـ/1669م، وكان يلقب بأبي المظفر محيي الدين اورنغزيب عالمغير، ولا يخفى أن الحروب المتتالية بين الورثة والتي قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه كانت سببا في دمار الأرض والعمران، كما عمّ البلاد قحط عام بسبب انحباس الأمطار الموسمية، لذا رأى اورنغزيب أن يرفع عن كاهل المواطنين جزءاً من المكوس والضرائب تخفيفاً عنهم ورأفة بهم، وكان اورنغزيب خطاطا بارعا حتى إنه يقال أنه كتب مصحفا بخط يده وأرسله هدية إلى المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وكان محبا للأدب وعلوم الدين، وقد حرص طوال أيام حكمه على إقامة السنّة ومحاربة البدعة وشدّد في تحريم الخمر ولعب الميسر، وأمر ببناء المساجد وترميم ما بلي منها، وزوّد تلك المساجد بالأئمة والوعاظ والمدرّسين، وحثّ الناس على الإقبال على حلقات العلم والدرس، وأمر بوضع موسوعة فقهية تحت إشرافه وهي الموسوعة الفقهية المعروفة باسم "فتاوىعالمغيرى" أو الفتاوى الهندية،[22] ولا تزال هذه الموسوعة الضخمة تعدّ من أهم المراجع في الفقه الحنفي خاصة في شبه القارة الهندية.

واتبع اورنغزيب سياسة شديدة في معاملته للهنادكة، حيث أبعد الكثير منهم من مناصب الدولة الهامة بخلاف ما كان من جده أكبر الذي كان يعاملهم معاملة لينة ويكرمهم بتعيينهم في مناصب الدولة العليا، وقد فاضت روح اورنغزيب يوم الجمعة في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام 1118هـ/1707م وهو في التسعين من عمره ودفن في مقبرته بمدينة أورنغاباد.

ويمكن تقسيم مدة حكم اورنغزيب والذي استمرّ أكثر من سبعة وأربعين عاما إلى فترتين: الفترة الأولى وهي التي انهمك فيها باستعادة الأمن والنظام في الهند، أما الفترة الثانية فقد قضاها في حروب متواصلة بالركن والجنوب استمرت حوالي ستة وعشرين عاماً، واستنفدت أموالاً طائلة وتكبد خلالها خسائر فادحة في الجنود والمدنيين، والجدير بالذكر أن اورنغزيب لم يكن هدفه من خوض تلك الحروب توسيع رقعة الدولة المغولية بقدر ما كان لإعلاء راية الإسلام والقضاء على الدويلات الشيعية في تلك المناطق.

غير أن اورنغزيب ترك البلاد لخلفاء ضعاف لم يستطيعوا الحفاظ على وحدة الدولة الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف، مما جرّأ بعض الولايات والمناطق على محاولة الاستقلال عن الحكومة المركزية، كما ظهرت بعض الحركات الوطنية التي كانت تهدف إلى إيقاظ روح الديانة الهندوكية، ومن أهم هذه الحركات قوة مرهثه في الجنوب ووسط الهند والتي استغلت أوضاع البلاد المتدهورة فقامت بسلب الأموال وقتل الكثيرين من مسلمي المغول والهند، وقد أدت مثل هذه الاضطرابات والحروب إلى انفصال مناطق كثيرة عن الدولة المغولية، ولم يبق للأسرة المغولية في أيامها الأخيرة إلا دلهي وآغره ومناطق محدودة حولهما، وظهر نفوذ الشركات التجارية الأوروبية في تلك الفترة وفي مقدمتها شركة الهند الشرقية، وكان آخر سلاطين المغول بهادر شاه الثاني الذي حارب البريطانيين وقتل كثيراً منهم، غير أنهم هزموه في النهاية ونفوه إلى رنغون عاصمة بورما (ميانمار) الحالية، وهكذا انتهت الدولة المغولية وخضعت الهند بعد ذلك لحكم التاج البريطاني حتى نالت استقلالها أخيراً عام 1366هـ/1947م.

النهضة الفنية والمعمارية في البنغال إبان الحكم الإسلامي:

كان لدخول الإسلام إلى البنغال أثره الكبير في الحياة الثقافية والفنية والعمرانية وكذلك الصناعية والاجتماعية في تلك البلاد، وأكبر شاهد على ذلك تلك المساجد والمدارس والجسور والقلاع والقصور والأضرحة التي شيدها سلاطين البنغال وحكامها والتي بلغت درجة كبيرة في الإتقان والجودة، وقد ازدهرت العمارة والفنون في تلك الفترة وصبغت بصبغة إسلامية، ومن الروائع الأثرية الإسلامية البنغالية التي ما تزال البلاد تحتفظ بها حتى يومنا هذا تلك النقوش العربية التي تحمل أكبر مظهر للحضارة الإسلامية في البنغال وخاصة لندرة التحف الأثرية الأخرى، ولما كانت معظم هذه النقوش موجودة في العمائر الإسلامية في البنغال كان لا بد أن نتعرف أوّلاً على العمائر الإسلامية في تلك البلاد.

إنه ما من شك أن العمائر الإسلامية في البنغال كانت قد تأثرت بأساليب العمائر الإسلامية في وسط آسيا وإيران، فقد كانت البنغال ترتبط مع تلك البلاد بعلاقات تجارية، ولا يخفى أثر ذلك على التبادل الحضاري بين البلاد، كما يؤثر عن سلاطين البنغال تشجيعهم للفنون والفنانين حيث قاموا باستقدام الكثيرين من الفنانين المسلمين من بلاد فارس وتركستان، لكن العمائر الإسلامية البنغالية حافظت في الوقت نفسه على بعض عناصر الفن المعماري المحلي مما جعلها متميزة عن مثيلاتها في البلاد الأخرى، فاستخدام القباب في المساجد على سبيل المثال كان من عناصر الفن المعماري المحلي، وبالرغم من أن العديد من المساجد في مدينتي غور وبندوة تضمنت عناصر معمارية إسلامية كانت معروفة في بلاد إيران وتركستان وأفغانستان وغيرها إلا أنها تميزت بكثرة استخدام القباب للتسقيف بأشكال متنوعة، فمسجد شات غنبد والذي شيده خانجهان في عهد السلطان أبي المظفر محمود شاه كان يحوي ستين قبة، وكانت القباب تبنى بتصاميم مختلفة كالأشكال البصلية أو المروحية أو المدببة أو الناقوسية، كما استخدمت القباب الضحلة والصغيرة للتسقيف وقد يكون السقف أحيانا عبارة عن قبة واحدة كبيرة، وامتازت العمائر الإسلامية في البنغال بشكل عام بكونها أقل فخامة وروعة من مثيلاتها من العمائر الإسلامية في البلاد الأخرى حيث تميزت بخلوّها من الأحجار الكريمة وكذلك ببساطتها ولكن مع بديع تخطيطها وزخارفها.

واتجه المسلمون في البنغال إلى استخدام الدعائم أكثر من الأعمدة في حالة توفر الأحجار، وكان الملوك والسلاطين يحبّذون استخدام الأحجار لكونها تضمن تخليد ذكراهم لمدة طويلة، ولم يتردد هؤلاء عند عدم توفر الأحجار في مكان ما أن يستخدموا الكتل الحجرية المجلوبة من العمائر الهندوكية القديمة، فمتحف أبحاث ورندره بمدينة راجشاهي مثلا يحتفظ بمحراب من عصر السلاطين يوجد في الجهة الخلفية منه أشكال لكائنات حية وهي عبارة عن تماثيل هندوكية، فما من شكّ في أنه كان قد جلب من أحد المعابد الهندوكية القديمة.

ونلاحظ أن العمائر الإسلامية قد روعي في بنائها المؤثرات الجوية والمناخية المختلفة، فنجد أن الواجهة الخارجية لبعض هذه العمائر قد بني بالأحجار لمقاومة الرطوبة في موسم الأمطار، بينما استخدم الآجر في الواجهة الداخلية، ولما كانت الأمطار تهطل بغزارة في تلك البلاد كان هناك اتجاه إلى بناء السقوف على شكل مائل للتخفيف من الأثر الذي يحدثه سقوط الأمطار المتواصل عليها، حيث تنساب المياه على السقوف المائلة كما هو معلوم بيسر وسهولة، واستخدم أيضا السقف الجمالوني في بعض العمائر وهو يحمل سمات الكوخ حيث يتكون من سقف مائل له منحدران متعاقبان في جميع جوانبه بحيث يكون المنحدر السفلي في بعض الأحيان أكثر ميلا من المنحدر العلوي.

وقد تجنّب الفنانون المسلمون بناء التماثيل واستخدام صور الكائنات الحية في زخارفهم وأعمالهم الفنية المختلفة، وذلك لتحريم الإسلام لمثل تلك العناصر، لذلك نجد أن الزخرفة النباتية والهندسية تغلب على الزخرفة الحيوانية، ومع ذلك فقد وجدت بعض المنمنمات التي تمثل بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك البلاد، ومناظر للبلاط الملكي ومناظر المبارزة في ميدان الحرب وكذلك بعض المناظر الخيالية المختلفة، وتحتفظ المكتبة البريطانية بلندن بمخطوطة ثمينة ترجع إلى

عهد السلطان نصرت شاه وتعرف باسم اسكندرنامة، وقد كتبت هذه المخطوطة الثمينة باللغة الفارسية، وتحتوي على قصة عاطفية للاسكندر الأكبر، وهي غنية بالمنمنمات الملوّنة التي تظهر بجلاء تأثير المدرسة الفنية الإيرانية، وأغلب الظن أن الفنانين في ذلك العصر كانوا يفضّلون استخدام الألوان المائية إذ يندر وجود رسوم زيتية من ذلك العصر.

وتقدمت في العصر السلطاني أيضا صناعة المنسوجات، وقد أشار إلى ذلك الرحالة الشهير ابن بطوطة حين تحدث عن المنسوجات البنغالية النفيسة، كما أطلق على منسوجاتها القطنية الرقيقة اسم موصلين أو موسلين نسبة إلى مدينة الموصل في العراق والتي اشتهرت في القرون الوسطى بمنتجاتها القطنية المعروفة باسم موصلين[23]، وبرع الفنانون المسلمون بالبنغال في الأعمال الخشبية والمعدنية والزجاجية، أما صناعة السجاد فلم تصل إلى درجة كبيرة من الإتقان ولذلك فإن البنغال كانت تستورد السجاد من كشمير وإيران ووسط آسيا.

ومن اليسير أن نتعرف على تاريخ النهضة المعمارية الإسلامية في الهند والبنغال منذ تأسست الدولة الإسلامية فيها حيث لا يزال الكثير من تراثها المعماري محفوظا بالرغم من الإهمال الذي لحق هذا التراث في بعض الأزمنة، وقد بدأت هذه النهضة منذ بداية الفتح الإسلامي للبلاد، فالفاتح العظيم قطب الدين أيبك والذي فتح وسط الهند وشرقها لأول مرة واتخذ دلهي عاصمة له قام بالكثير من الإنشاءات المعمارية على الرغم من قصر فترة حكمه، ولا تزال بعض منشآته العظيمة مثل مسجد قوة الإسلام وقطب منار بنقوشها الكتابية الرائعة تستهوي قلوب الناس من كل مكان.

ثم تبعه في نهجه الحكام الذين الذين جاءوا من بعده، فاهتموا ببناء العمائر الدينية والمدنية والعسكرية في مختلف أنحاء البلاد، وكان بابر مؤسس الحكم المغولي في الهند ذا شغف كبير وتذوق رفيع في ميدان العمارة والفنون، فقد عاش في فرغانه[24] وسمرقند وهراة وكابل وغيرها من المدن التي كانت تعتبر من أهم المراكز الثقافية والفنية في عصره، فتعرّف على الحركات المعمارية والفنية التي كانت سائدة في تلك المدن آنذاك، وتعرّف أيضا على العديد من الفنانين الذين شاركوا في إنشاء هذه المراكز الفنية، غير أن حياته الشاقة لم تتح له فرصة تعمير البلاد أو القيام بأعمال ضخمة في الميدان المعماري والفني، ومع ذلك فقد قام بإنشاء بعض العمائر في المدن التي فتحها وعاش فيها، وكذلك أقام عددا من البساتين والحدائق في الهند، حيث عرف بحبّه للطبيعة ومناظرها الجميلة، ومن الحدائق التي أنشأها حديقة ?هار باغ في ضواحي آغره يحاكي بها مغاني كابل التي طالما ترنّم بذكرها[25]، ولما كانت فترة حكمه للهند قصيرة لم يصل إلى أيدينا من تلك الفترة إلا القليل من النقوش الكتابية وهذه النقوش القليلة عثر عليها في منطقة البنجاب وهريانة ودلهي وهي تسجل في نصوصها إنشاء مساجد ومدارس وقلاع وجسور- كلها تدلّ على مدى النشاط المعماري في تلك الفترة.

وخلف بابر ابنه همايون الذي لم يحكم الهند إلا لفترة قصيرة، ولذلك لم يترك لنا هو الآخر الكثير من الأعمال الفنية أو المعمارية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحياة الفنية والثقافية في تلك البلاد قد صبغت بالصبغة الإيرانية بعد عودة همايون من منفاه في إيران، حيث دعا همايون كثيرا من الفنانين الإيرانيين للعمل في البلاط المغولي، أما أثناء إقامة همايون في المنفى فقد كان يحكم البلاد شيرشاه سوري زعيم

الأفغان، وقد أنشأ شيرشاه في تلك الفترة الكثير من المدارس والمساجد والقلاع والعمائر المدنية، ويعتبر ضريحه الذي أنشئ في سهسرام من الروائع الفنية المعمارية في تلك الفترة.

وخلف همايون ابنه أكبر والذي اشتهر بعنايته الفائقة بالعمارة والفنون، وكان بناؤه لمدينة فتحپور سكرى من أعظم الإنجازات التي حققها، وقد جعلها عاصمة له بدلا من مدينة آغره، وبنى فيها جامعا كبيرا وقصورا عديدة وأنشأ مقبرة سليم چشتي[26]، واستخدم الحجر الأحمر والرخام في بناء العمائر المختلفة، غير أن هذه المدينة فقدت مجدها بعد انقضاء فترة حكم أكبر إذ كانت عاصمة لمدة أربعة عشر عاما فقط وذلك أثناء حكمه ثم سرعان ما تحولت إلى مكان مهجور، وهي الآن من أهم المراكز السياحية الأثرية في الهند[27]، وتعتبر مباني وعمائر هذه المدينة خير شاهد على استخدام كثير من العناصر المعمارية الهندية الإسلامية مثل الدعائم والأقواس والقباب وغيرها، وكان يحيط بالمدينة من ثلاث جهات سور كبير طوله خمسة كيلومترات، أمّا من الجهة الرابعة فتطلّ على بحيرة صناعية تعتمد على حجز المياه عن طريق سد قائم عند أحد جوانبها، ومن العمائر الفخمة في هذه المدينة الديوان العام وقوامه خمسة طوابق مدرجة تضيق كلما صعدت إلى أعلى المبنى، وكان هذا الديوان يحتوي على مائة وعشرين ديوانا منها الديوان الخاص بالاستقبالات الملكية وهو بناء مربع من طابقين له أربعة أبواب وأعمدة مزينة بالمقرنصات، ويشتمل القصر على أربع قباب صغيرة، وقد استخدم الحجر الأحمر وأحيانا الرخام في بناء مدينة فتحپور سكرى.

وخلف أكبر ابنه جهانغير وكان كأبيه محبا للفن والفنانين، وأقيمت في عهده العمائر المختلفة وخاصة الأضرحة والمقابر لأفراد أسرته، ومن أشهر هذه المقابر مقبرة اعتماد الدولة بمدينة آغره، وتعتبر مقبرة جهانغير في مدينة لاهور من الإنجازات الفنية والمعمارية الرائعة، واهتم جهانغير أيضا بإنشاء الحدائق وتنسيقها، وكان يزوّدها بنباتات وأشجار لم تكن معروفة في الهند، ويعتبر عصره فترة انتقال من استخدام الأحجار إلى استخدام الرخام في العمائر.

ثم خلف جهانغير ابنه شاهجهان وكان من أشهر أباطرة المغول في تذوقه الرفيع للفن وخاصة في مجال العمارة، وقد أنفق الأموال الطائلة التي ورثها عن آبائه في تجميل البلاد، فقام ببناء الكثير من المنشآت المعمارية الفخمة في مدينتي آغره ودلهي، ومن أهم تلك المنشآت المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء في مدينة دلهي، ولكن أروعها جميعا هو ذلك المثوى الفخم الذي يعرف باسم تاج محل والذي أقامه تخليدا لذكرى زوجته ممتاز محل، ويعتبر تاج محل من عجائب الدنيا لروعته وبهائه [28].

وجاء من بعده ابنه أورنغزيب الذي وصلت رقعة البلاد في عهده إلى أقصى حدودها، وقد شغلته الحروب عن الاعتناء بالنشاطات المعمارية والفنية، وكان أورنغزيب متدينا وعالما يحب الأدب والعلوم الدينية وكان زاهدا متقشفا في حياته الخاصة وفي دولته، لذلك اتّسم فن العمارة في عهده بالبساطة وعدم استخدام الزخارف الكثيرة.

الهوامش

[1] *دائرة المعارف الإسلامية*. القاهرة، دار الشعب، 1969م، الطبعة الثانية، ج ،8 ص، 5، 18.
[2] *Encyclopedia of Islam*, New Edition, Vol.. 1 (Leiden: E. J Brill, 1960), 1015.
[3] Abu 'l-Fadl Allami, *Ain-e-Akbari*, Vol. 2, trans. and ed. H. Blochmann, (Calcutta: Asiatic Society of Bengal, 1877), 116.
[4] عبد الكريم. *تاريخ البنغال في عهد السلاطين- باللغة البنغالية*، الأكاديمية البنغالية، دهاكا، 1977، ص 2-4.

[5] *المرجع نفسه*. ص 5.
[6] *Periplus of the Erthraean Sea trans.* J.W. Schoff. (1712), 40.
[7] زين المعبري. *تحفة المجاهدين*، حيدرأباد دكن، الهند، 1931، ص13، 15.

[8] عبد الكريم. *سبق الإشارة إليه*، ص 56- 62.
[9] رحلة ابن بطوطة: "*تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*"، المطبعة الأميرية، بولاق القاهرة، 1934، ج 2، ص 231-234.
[10] سليمان بن أحمد بن سليمان. *المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر*، تحقيق: إبراهيم خوري، دمشق، 1390هـ/1970م، ص 16-17، 24، 25، 27.

[11] سليمان بن أحمد بن سليمان. *العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية*، دمشق ، 1390هـ/1970م، ص 113-120.

[12] عبد الكريم. *سبق الإشارة إليه*، ص 67.

[13] *المرجع نفسه*. ص 239-241 .
[14] *دائرة المعارف الإسلامية*: القاهرة، 1969م، ج 8، ص 183.
[15] إحسان حقي. *تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية*، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1398 هـ، ص 128.
[16] *Babur Nama*, trans. H. Beveridge (London: Luzak and Company Ltd, 1969), 480.

[17] الساداتي. *تاريخ الدول الإسلامية بآسيا*، ص 80-82.
[18] Rummer Godden, *Gulbadan* (New York: The Viking Press, 1981), 78-108.

[19] الساداتي. *سبق الإشارة إليه*، ص 87-88.

[20] Robert Skelton and others, *The Indian Heritage, Court Life and Arts under Mughal Rule* (London: Festival of India Trust, 1982), 30.
[21] الساداتي. *تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية*، ج 2، ص 166-167.

[22] *الفتاوى الهندية في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان*: المكتبة الإسلامية، محمد ازدمير، ديار بكر، تركيا، الطبعة الثانية بالمطبعة الكبرى، بولاق، 1310هـ.

[23] إحسان حقي. *تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية*. بيروت، مؤسسة الرسالة، 1398هـ، ص 128.

[24] فرغانة كانت إمارة صغيرة في آسيا الوسطى.
[25] الساداتي. تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، جزء 2، ص 47.

[26] سليم چشتي Chishti كان من رجال الصوفية في تلك الفترة.

[27] R.A. Jairazbhay, *An Outline of Islamic Architecture* (Bombay: Asia Publishing House, 1971), 315-321.

[28] الساداتي. *تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية*، جزء 2، ص 67-166.